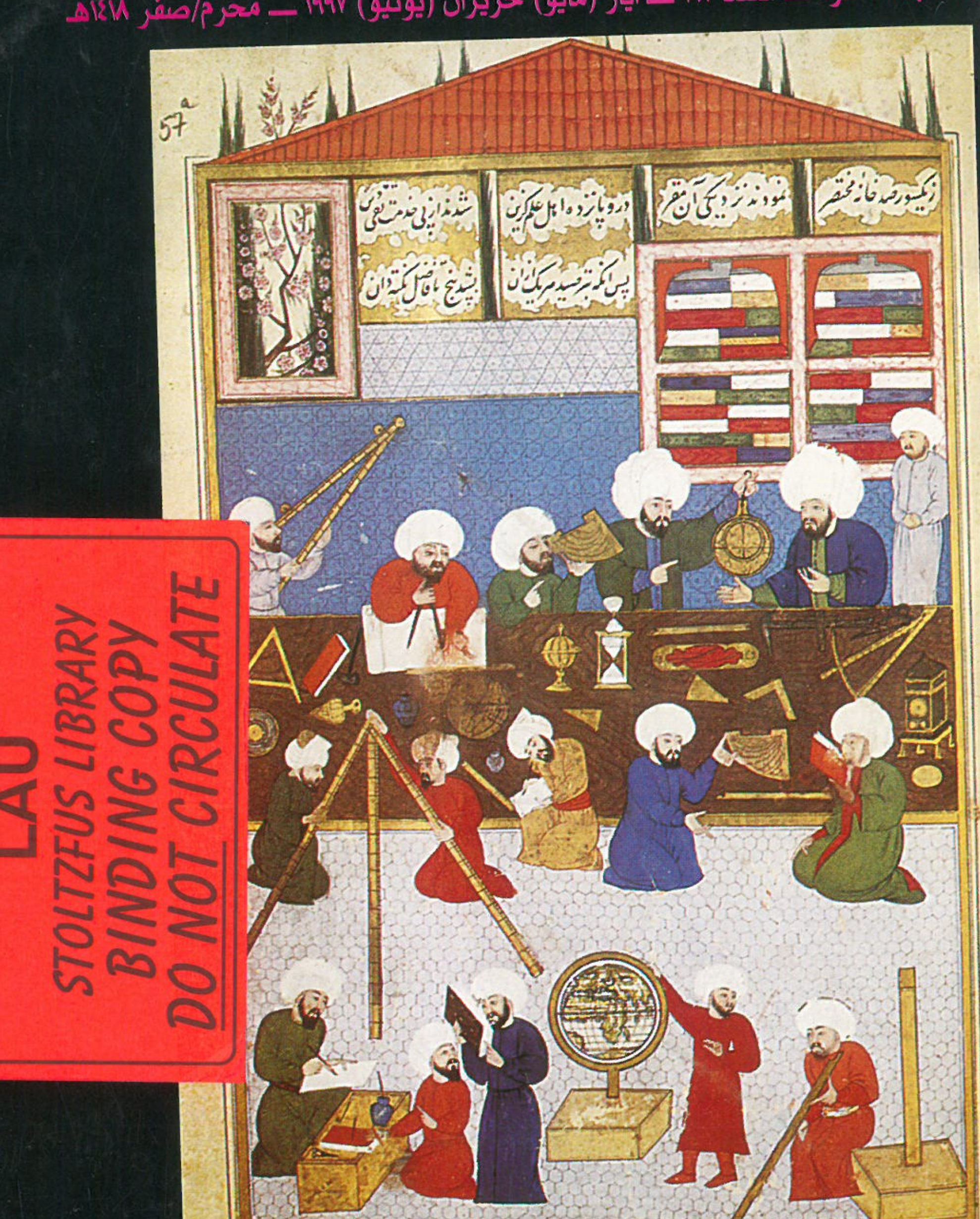


السنة السابعة عشرة ـ العدد ١٦٧ ـ آيار (مايو) حزيران (يونيو) ١٩٩٧ ـ محرم/صفر ١٤١٨هـ



LAU
STOLTZFUS LIBRARY
BINDING COPY
DO NOT CIRCULATE

الجغرافيون العرب

من القرن الخامس إلى القرن الثامن

د. نقولا زيادة

مرّ العالم الإسلامي، من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، فيما بين القرن الخامس (الحادي عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر)، بتجارب سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية منوعة كان لها في حياة المجتمع العربي الإسلامي آثار بعيدة المدى. ويكفي أن نذكر مثلاً أنه في هذه الفترة بلغ التفكك السياسي ذروته، وهاجم الصليبيون ديار الشام ومصر واحتلوها مدة من الزمن، وتوغل الأسبان في الأندلس وهاجم المغول بغداد وقضوا على الخلافة العباسية، ثم قامت في ديار الشام ومصر دولة الأيوبيين ثم دولة المماليك، كما ظهرت في المغرب دولة المرابطين ثم امبراطورية الموحدين.. يكفي أن نذكر هذه الأمور كي ندرك مدى التمزق والضغط اللذين تعرض لهما هذا العالم الواسع والتنوع الجديد في التكوين العنصري لبعض أجزائه، والتبدل الاقتصادي الذي اجتازه. ومع ذلك فقد ظل فيه نشاط علمي، ولكنه كان يختلف عن النشاط الذي عرفته القرون السابقة لذلك.

فمن الناحية الواحدة غلب على الفكر العربي في المشرق انعدام التجديد والابتكار فيه واهتمام المشتغلين بالعلم بوضع معاجم وموسوعات نظمت معارف الأولين في مختلف البحوث والدراسات. وكان الكثير من المؤلفات التي وضعت يقصد من وضعها ناحية عملية على ما يتضح لنا من سياق البحث.

وحري بالذكر، من الناحية الثانية، أن المدرسة الرسمية التي بداها الوزير السلجوقي «نظام الملك»، لما أنشأ المدرسة النظامية في بغداد (القرن الخامس ـ الحادي عشر)، أصبحت هي النموذج لمعاهد التعليم العالي في أيام الأيوبيين والمماليك في المشرق. وكانت الغاية التي تعمل المدرسة من أجلها تهيئة موظفين لأعمال الدولة المختلفة في الدواوين والقضاء والإفتاء والتدريس. وهذه المدارس كانت، بحكم الغايات التي كان مطلوباً منها أن تحققها، معاهد تقليدية قلّما تعنى بالقضايا الجديدة والمشاكل المتنوعة، لأن المجتمع بكامله

أصبح فيه شيء من الانطواء على النفس، إن لم يكن انطواءً تاماً.

ونحن إذا انتقلنا إلى المغرب الإسلامي وجدنا شبهاً بأحوال المشرق. فقد كان القرن الخامس على حد تعبير الدكتور «حسين مؤنس» حافلاً «بالمآسي والقلق والحيرة في الأندلس». فقد كان أهله ثمرات عصر الخلافة الأموية، لكنهم لم يلبثوا أن فاجاتهم الفتنة التي أطاحت بالخلافة: «فإذا الدنيا تنقلب من حولهم وتصوح آمالهم وتفرض الظروف القاسية عليهم طريقاً غير التي أرادوا، وتجرفهم الحوادث فتصبح حياتهم حيرة متصلة وقلقاً دائماً».

ومع ذلك فإن الفترة الممتدة من أواسط القرن الخامس (القرن الحادي عشر) إلى أواسط القرن السادس (الثاني عشر) وصل فيها التأليف في الأندلس في شتى ضروب العلوم ذروته. وقد أجمل الدكتور حسين مؤنس ما يتميز به الإنتاج الفكري بقوله:

«والخصائص المميزة للإنتاج الفكري الأندلسي خلال هذا القرن، هي: التجويد والإحكام في التأليف، ثم وفرة الإنتاج المنسوب إلى كل علم من الأعلام، وتكامل الجهود في شتى ضروب العلم حتى لا يكاد يخلو ضرب منه من مؤلفات مجيدة تعتبر معالم واضحة في تاريخه كله. وخلال هذا القرن أيضاً نرى كيف وصلت الرسائل المختصرة التي تكتب في موضوع بعينه إلى ذروة لم تعرفها هذه الرسائل قبل ذلك، ونلاحظ اتجاهاً واضحاً نحو التخصص.

ولقد عرف تاريخ الفكر الإسلامي التخصص من زمن بعيد ولكن في ميادين معينة كالفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن، أما التخصص في غير هذه العلوم كالجغرافية والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما إليها فهو الجديد في الأندلس خلال هذه الفترة. حتى العلوم التي عرف الأندلسيون الانقطاع لها قبل هذه الفترة نجد التخصص فيها يصل بها إلى ذروات لم تعرفها قبلها أو بعدها».

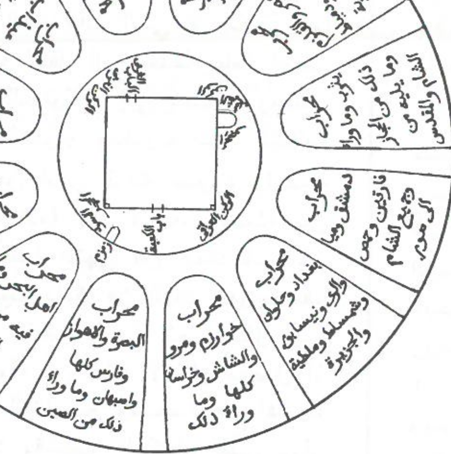
على أننا إذا نحن تجاوزنا القرن السادس (الثاني عشر) إلى القرنين اللذين تلواه، وجدنا أن الذي قلناه من قبل عن المشرق ينطبق على المغرب أيضاً.

وفي هذه القرون التي أشرنا إليها ظهر عدد من الجغرافيين اللامعين، ولكننا سنقتصر في هذا الحديث على نفر قليل منهم، هم: أبو عبيد الله البكري، والإدريسي، وأبو الفداء، وابن شداد، والنويري، والعمري، والقلقشندي. وقد يبدو غريباً للبعض أن يضم الكُتّاب الثلاثة الأخيرون إلى الجغرافيين، ولذلك فلنسارع إلى القول بأن المادة الجغرافية الإقليمية والسياسية والإدارية التي نجدها عند أمثال هؤلاء المؤلفين تكاد تكون فريدة بالنسبة إلى حاجات المؤرخ المعني بالموضوع.

ونحن نود أن نعالج هؤلاء المؤلفين في ثلاث مجموعات، الأولى منها تضم البكري وياقوت وأبا الفداء. والثانية نفردها للإدريسي والثالثة تشمل ابن شداد والنويري والعمري والقلقشندي.

* * *

أبو عبيد الله البكري أندلسي المولد والنشأة. ولد في «ولبة» في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر) وانتقل مع أبيه إلى قرطبة وهو في مطلع شبابه، ثم انتقل إلى «المرية»، ثم إلى «إشبيلية»، حيث قضى نحبه سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م). وللبكري مشاركات في اللغة والأدب وما إلى ذلك على نحو ما كان عليه أهم العلم في العصور الخوالي، كما أن له كتاباً في النبات. أما البكري الجغرافي فمعروف بكتابين هما: «معجم ما استعجم»، و«المسالك والممالك».



□ صورة تبين القبلة بالنسبة إلى الأقطار المختلفة لياقوت الحموي.

و«معجم ما استعجم» هو أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب. فالدكتور حسين مؤنس، الذي درس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، يقول عنه: «فإن التأليف في ذلك الفن (الجغرافية) اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك. أما أن يفكر عالم في وضع معجم أبجدي لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافي عند العرب... نوع يتطور ويزهو حتى يصل إلى ذروته في معجم ياقوت المعروف».

وقد عرفنا المؤلف بكتابه بقوله: «هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه ـ إن شاء الله ـ جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار، والمياه والآبار والدارات والحرار، منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة.. فلما رأيت ذلك قد استعجم على الناس، أردت أن أفصح عنه، بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف».

و«معجم ما استعجم» يتناول شبه جزيرة العرب، وقد قدم المؤلف لقاموسه بدراسة شاملة عن شبه الجزيرة من الناحية الجغرافية. والكتاب مقدمة ومتناً، نتيجة جهد وصبر واطلاع واسع وتنظيم فكري وإخلاص للعلم. وهو، إلى ذلك كله، دقيق إلى درجة كبيرة جداً. ومع أن البكري لم يزر ديار العرب، ذلك بأنه لم يخرج من الأندلس، فقد تصور البلاد تصوراً ممتازاً. وقد استعملت هذا المعجم كثيراً، واستعمله غيري كثيرون، وفي كل مرة كنا نرى الفائدة الجلى التي تعود علينا من قراءة المادة التي تلزمنا، وقد رتب البكري معجمه على حروف الهجاء على نحو ما كان الأندلسيون يقبلون بترتيبها[1]، ولكن مصطفى السقا، ناشر المعجم في طبعته الثانية التي نشرت في مصر، أعاد ترتيب أعلامه على ترتيب حروف المعجم المألوف لدينا.

(١) كان الأندلسيون يرتبون حروف الهجاء على النحو التالي: أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي.

وللبكري كتاب آخر في الجغرافية هو «المسالك والممالك»، وهو لم ينشر كاملاً بعد، بل لم تجمع كل مادته في مكان واحد، ولذلك فالحديث عنه يظل ناقصاً. وقد أفرط المؤلف في المقدمات التي لا علاقة لها بالجغرافية، ثم انتقل إلى مقدمة عامة لخّص فيها المعرفة الجغرافية إلى عصره. وبسبب دقته وصفاء أسلوبه ومقدرته على التنظيم فإنه وضع بين أيدي قرائه صورة واضحة للمعرفة الجغرافية إلى أيامه. وفصله عن الأنهار قيّم. فلما انتهى من المقدمات أخذ الممالك بالترتيب بادئاً من الهند. فهو يصف المملكة، أي القطر، عامة ثم ينتقل إلى مسالكها. وحديثه عن هذه الأقطار مفصل إذ يورد بعض التاريخ وخصائص أهلها وعاداتهم. ولا يقتصر البكري على ديار الإسلام، شأن جغرافيي القرن السابع (العاشر)، بل يتناول أقطاراً أوروبية بالوصف الدقيق. ويجب أن نذكر أن البكري، مثل عدد من مؤلفي كتب الممالك والمسالك، تختلف معالجته للأقطار بنسبة ما يحصل عليه من معلومات ومصادر. فيطيل حيث يقع على التفاصيل ويختصر في غير ذلك، ولكنه دقيق في تخيره المعلومات وتنظيمها في كل حال.

وقد نشر الدكتور عبد الرحمن الحجي مؤخراً القسم الخاص بالأندلس وأوروبا من كتاب البكري هذا، ونرى من المناسب أن ننقل هنا فقرة مما جاء فيه لنظهر أسلوب البكري وطريقته في معالجة موضوعاته الجغرافية:

«بلاد إفرنجة: في وسط الإقليم الخامس، وهواؤها غليظ لشدة بردها، ومصيفها معتدل. وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار، منبعثة من ذوب الثلج. ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء، وآخر حدودها بحر الشام، وحده آخر البحر المحيط، البحر الشامي بقبليها والبحر المحيط بجوفيها. ويتصل ببلاد روما أيضاً من ناحية الجوف بلاد الصقالبة بينهما شعراء ملتفة، مسيرة الأيام الكثيرة، ويتصل بالشرق أيضاً بالصقالبة ويتصل بالغرب بالبشكنس، ويتصل أيضاً ببلاد بيوره وهم الذين يعرفون بالأمانيس، ولهم كلام غير كلام الإفرنج.

وتتمادى إفرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين مع غيرها من القبائل. ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلد الصقالبة في الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين، فيتمادى بلد الإفرنج مع ساحل البحر القبلي الشامي حتى يلتصق بجزيرة روما وبلد لنقبرذية، ويتمادى مع الجبل المعترض في الجوف إلى البحر المحيط. ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش. وسيوف إفرنجة تفوق سيوف الهند».

* * *

وإذا نحن انتقلنا من البكري الأندلسي باحثين عن معجمي آخر حريّ بالتحدث عنه، انتهى بنا المطاف إلى ياقوت الحموي، صاحب «معجم البلدان».

ياقوت رومي المولد، وقد حمل إلى سوق الرقيق ببغداد حيث اشتراه تاجر اسمه «عسكر بن ابراهيم» وأصله من حماة، ومن هنا نسبته الحموي. وقد وضعه سيده في مدرسة حيث تعلم الكتابة، بحيث أفاد منه في ضبط حساباته وتجاراته. لكن ياقوت أفاد من المدرسة أدباً ولغة. وأرسله عسكر في تجارات له بعيدة حملته إلى عمان وجزيرة كيش وغيرهما من أقطار الخليج العربي وديار الشام. وهذا هو السبب الذي من أجله أغرم ياقوت بالرحلة. وقد أعتقه عسكر، ويبدو أنه حدثت بينه وبين سيده جفوة لم يطل أمدها. ومؤرخو ياقوت يظنون أن سيده أوصى له ببعض ثروته، فتمكّن بذلك من تعاطي التجارة لحسابه الخاص.

□ صورة للاقاليم السبعة من خط الاستواء إلى جهة الشمال لياقوت الحموي.

وقد تنقل ياقوت كثيراً، رحالة وتاجراً وطالب عالم. فهو يوم في تبريز، ويوم في مصر، ويوم في مرو. وقد أغرته خزائن الكتب في هذه المدينة فقضى فيها سنتين يلتهم ما فيها من معرفة، وفيها بدأ بوضع معجمه. وانتقل إلى خوارزم (خيوه)، لكن لما بلغه تحرك جنكيز خان نحو الغرب هرب إلى الموصل تاركاً كل ثروته في خوارزم، فوصل الموصل معدماً. ولكن الوزير ابن القفطي استضافه في حلب إلا أنه عاد بعد سنتين إلى الموصل فاتم معجمه ثم زار مصر وعاد إلى حلب فعمل على تنقيح مؤلفه وتوفي في تلك المدينة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م).

وبعد، فما هو معجم البلدان؟ ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام غير متساوية: أولها مقدمة، وثانيها خمسة أبواب هي بمثابة مدخل إلى المعجم، وثالثها المعجم نفسه، وهو، بطبيعة الحال، القسم الأكبر من الكتاب. والمقدمة تكاد تكون تبريراً واعتذاراً عن طرق مثل هذا الموضوع فيقول بأن قراءة الرحلات والتعرف إلى أحوال الناس وما أصاب البلدان فيها جميعها موعظة. ويذكر قراءه بأن معرفة التفاصيل الجغرافية والتاريخية عن أقطار المعمورة لازمة للعلماء والمجتهدين والقضاة والحكام. ويتحدث في المقدمة عن مصادره المكتوبة، والرجال الذين نقل عنهم، يقول:

«واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها، وملكتك عفواً صفواً عقدها وحلها، حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تاباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول، لبعدها عن العادات المألوفة، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وإن كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق، وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرىء إلى قارئها من صحتها، لأنني كتبتها حرصاً على إحراز الفوائد، وطلباً لتحصيل القلائد منها والفرائد، فإن كانت حقاً فقد أخذنا منها نصيب المصيب، وإن كانت باطلاً فلها في الحق شرك ونصيب، لأنني نقلتها كما وجدتها، فأنا صادق في إيرادها كما أوردتها، لتعرف ما قيل في ذلك، حقاً كان

أو باطلاً، فإن قائلاً لو قال: سمعت زيداً يكذب، لأحببت أن تعرف كيفية كذبه».

والأبواب الخمسة التي تلي المقدمة يتناول فيها ياقوت صورة الأرض من حيث معطياتها الفلكية والرياضية، ومعنى الأقاليم، ويحدد مصطلحات جغرافية معرفتها لازمة، مثل البريد والفرسخ، ويبين حكم الأرضين من حيث الفتح وحكم الشرع، ويقدم نبذاً من أخبار البلدان.

فإذا انتهى من ذلك كله أخذ نفسه بعرض الأماكن ـ جبالاً وأنهاراً ومدناً ومواقع ـ على الترتيب الألفبائي، محدداً طريقة لفظ الموضع بالضبط (كتابة) وقد يفسر الكلمة اشتقاقاً، ويستشهد بالشعر أو النثر موضحاً شارحاً. وبعدها يأخذ نفسه بالناحية الجغرافية والتاريخية. ومعجم البلدان يتمتع بميزات خاصة يمكن إجمالها فيما يلي:

* إنه جماع للجغرافية في صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات، كما تنعكس فيه الجغرافية التاريخية إلى جانب الدين والحضارة والانثولوجية والأدب الشعبي والأدب الفني.

* وزع ياقوت اهتمامه على العالم الإسلامي والشرق الأقصى. فمن هذه الناحية أدرك الرجل، ولعلّ ذلك بسبب تحرك المغول المعاصر له، أن تلك المناطق النائية ازدادت العلاقة الوثيقة بينها وبين العالم الإسلامي بسبب تطورها التاريخي القريب.

* يعطي ياقوت وصفاً دقيقاً للأمكنة التي زارها ويورد التفاصيل الدقيقة عن الأبنية والقلاع والمرافىء، ويهمه وصف العادات والأخلاق.

* كان ياقوت يعرف الجهد الذي بذله، ولذلك فقد وصف معجمه بقوله: «وعلى ذلك فإنني أقول ولا أحتشم، وأدعو إلى النزال كل علم في العلم ولا أنهزم، إن كتابي هذا أوحد في بابه، مؤمر على أضرابه، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أيد بالتوفيق، وركب في طلب فوائده كل طريق، فغار تارة وأنجد، وطوح لأجله بنفسه فأبعد، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته، وساعده العمر بامتداده وكفايته وظهرت منه إمارات الحرص وحركته».

وهكذا نرى أن معجم البلدان منجم للمعرفة الجغرافية، وهو إلى ذلك يعطينا صورة للعالم الإسلامي قبل أن يحطم التتار (المغول) أجزاءه.

وكان ياقوت لا يحب أن يتعرض معجمه للاختصار قط. ورأيه في ذلك ووصيته توضحان ناحية من نواحي شخصيته. قال:

«ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً، فأبيت ولم أجد لي على قصر هممهم أولياء ولا أنصاراً، فما انقدت لهم ولا ارعويت، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع نصبي، ونصف نفسي له وتعبي، بتبديد ما جمعت، وتشتيت ما لفقت، وتفريق ملتئم محاسنه، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه، باقتضابه واختصاره، وتعطيل جيده من حليه وأنواره، وغصبه إعلان فضله وأسراره، فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها، وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها، ينضي الركاب إليها. فإن أجبتني فقد بررتني، جعلك الله من الأبرار، وإن خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار.

ثم اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوي، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين، أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصلم الأذنين، أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلاً، أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلاً».

ومع ذلك فلم ترع وصية ياقوت ورغبته. ذلك بأن ابن عبد الحق انتزع من معجم البلدان مادته الجغرافية ووضعها في كتاب سماه «مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع»، كما أن السيوطي لخّص معجم البلدان في كتاب اسمه «مختصر معجم البلدان».

* * *

كتاب «تقويم البلدان» الذي وضعه الملك المؤيد أبو الفداء يمثل ما وصل إليه تنظيم المعرفة الجغرافية إلى أواسط القرن الثامن (الرابع عشر). والمؤلف من الدوحة الأيوبية، ولد في دمشق سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) وتوفي في حماة سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م)، وقد كان أميرها أكثر من مرة. وكانت حماة في أيامه موئلاً لأهل العلم والأدب والشعر. وقد تعرف أبو الفداء إلى ديار الشام ومصر وبلاد العرب وشرق آسيا الصغرى والجزيرة، ولم يزر سواها. لكن المؤلف يختلف عن غيره ممن تحدثنا عنه في أنه كان مؤرخاً كبيراً، وكتابه «المختصر في أخبار البشر» مصدر رئيسي لأحداث الفترة الأولى من العصر المملوكي.

وكتابه «تقويم البلدان» فيه قسم صغير يضم المعلومات المعهودة عن تقسيم الأرض وخط الاستواء والأقاليم السبعة والمعمور من الأرض والمصطلحات المستعملة في الجغرافية بشكل يذكرنا بالمؤلفين الذين سبقوه إلى الكتابة في هذه المواضيع. أما القسم الكبير الرئيسي فهو في ٢٨ جزءاً أو جدولاً، انصرف فيه إلى التحدث عن الأقاليم أو الأقطار التالية، وهي: بلاد العرب ومصر والمغرب والسودان والأندلس وجزر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وبلاد الفرنجة والترك (ويسميها بلاد الشمال) والشام والجزيرة والعراق وخوزستان

سطر العدد	الاسماء	اسماء المنقول عنهم	تاسع الاقاليم العرفية وهو العراق: الطول، درج	الطول، دقائق	العرض، درج	العرض، دقائق	الاقليم الحقيقي	الاقليم العرفي	ضبط الاسماء
١٥	النعمانية	اطوال	ع	ك	لب	ه	من الثالث	من العراق	من المشترك بضم النون وسكون العين المهملة وميم والف ونون وياء مثناة تحتية وفى آخرها هاء
١٦	النهروان	اطوال / قانون	ع / ع	ك / ك	لب / لب	مه / كه	من آخر الثالث	من العراق على جانبي نهر	من اللباب بفتح النون وسكون الهاء وضم الراء المهملة وفتح الواو وبعد الالف نون
١٧	قصر ابن هبيرة	اطوال / قانون	ع / سط	ل / م	لب / لب	مه / ح	من الثالث	من العراق	من اللباب بفتح القاف وسكون الصاد المهملة وفى الآخر راء مهملة
١٨	جرجرايا	اطوال وقانون	ع	ل	لب	ح	من الثالث	على غربي دجلة من العراق	من اللباب براء مهملة ساكنة بين جيمين مفتوحتين ثم راء مهملة والف وياء مثناة من تحت وفى آخرها الف
١٩	فم الصلح	اطوال / قانون	ع / عب	مه / ح	لب / لب	م / ن	من الثالث	على غربي دجلة من العراق	من اللباب بكسر الصاد المهملة وسكون اللام وفى آخرها حاء مهملة
٢٠	نهر الملك	اطوال / قانون	ع / سط	ن / ن	لب / لب	كه / مه	من آخر الثالث	من العراق	معروف

□ صفحة من كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء.

وفارس وكرمان وسجستان والسند والهند والصين وجزر البحر الشرقي والروم وأرمينية والعراق العجمي والديلم وطبرستان وخراسان والغور وطخارستان وخوارزم وما وراء النهر. ويبدو من هذا التقسيم أمران: أولهما تأثر المؤلف بالبلخي ومدرسته، وثانيهما عودته إلى تقسيم جغرافيي القرن الرابع (العاشر)، أي أنه أطرح جانباً تقسيم الأرض إلى أقاليم فلكية. ولم يأت أبو الفداء بجديد في معلوماته، إلا فيما ندر، لكنه جمع هذه المعرفة وبوّبها ونظمها. وفي كل إقليم جغرافي يبدأ بعرض عام للمنطقة وآثارها وعادات سكانها، ثم يتلو ذلك جدول يبين فيه الأماكن المأهولة ووصفاً عاماً للمدن وتعيين مواقعها الفلكية من حيث الأطوال والعروض. ومادته عن ديار الشام والأقطار المجاورة لها هي ذات الأهمية الكبرى عنده لوفرة المادة التي حصل عليها.

وها نحن أولاء ننقل نموذجاً من تقويم البلدان هو وصف المؤلف لمدينة القيروان:

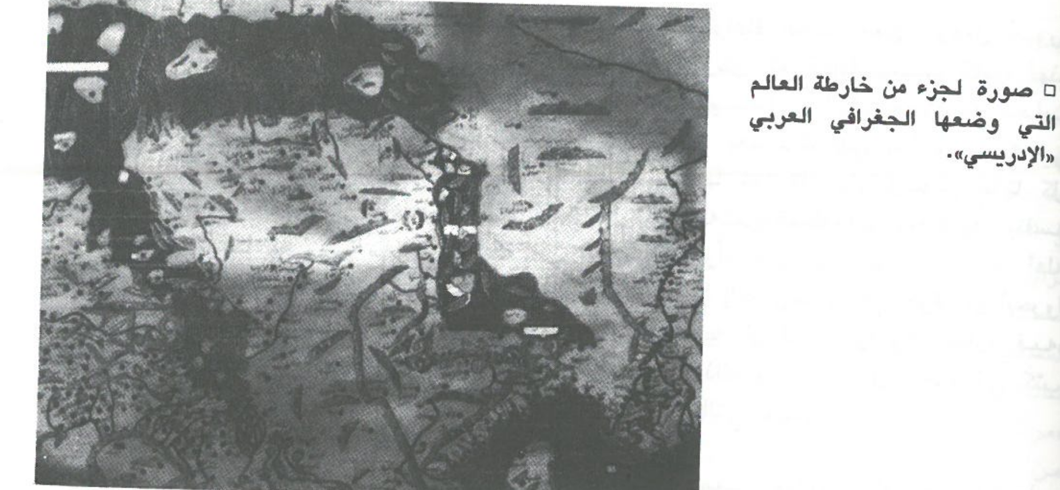
«ومدينة القيروان محدثة بنيت في صدر الإسلام، وهي في جنوبي الجبل والجبل من شماليها وهي في صحراء تصلح لجمال العرب، وكانت قاعدة أفريقية في صدر الإسلام وهي اليوم تابعة لتونس. وشرب أهلها من الآبار وليس لها ماء جار وهي في الوطاة. قال في العزيزي: ومدينة القيروان أجل مدن المغرب وكان عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الأغلب لما ثار على عمار بن مجالد. وشرب أهلها من ماء المطر يجتمع لها من الشتاء في برك عظام تسمى (المواجل) ولها واد في قبلة المدينة تأتي فيه ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجونه».

حري بنا وقد تحدثنا عن البكري وياقوت وأبي الفداء، أن نذكّر أنفسنا بأن هؤلاء المؤلفين الثلاثة تخطوا الحدود التي رسمها جغرافيو القرن الرابع (العاشر) لأنفسهم، إذ اقتصر هؤلاء على وصف ديار الإسلام. فالبكري تعرض لمناطق أوروبية في «المسالك والممالك»، وياقوت عُني بالشرق الأقصى في معجمه، وأبو الفداء تناول بلاد الروم وبلاد الترك والفرنجة في تقويمه. وقد كان كل هذا طبيعياً، فالفترة التي عاش فيها هؤلاء هي فترة العناية بالعالم الخارج عن ديار الإسلام، بالإضافة إلى هذه الأقطار الإسلامية. فالتجارب العسكرية والسياسية والتطورات التي خبرها العالم الإسلامي واجتازها كانت تحتم على كتابه والمؤلفين فيه أن ينظروا إلى خارج ديارهم وأن تكون نظرتهم يقصد منها التعرف إلى البلاد التي خرج منها خصومهم ومحاربوهم أو الجماعات التي أثّرت فيهم أو أثّروا فيها.

* * *

ضمننا معجم ما استعجم، ومعجم البلدان، وتقويم البلدان، في مجموعة واحدة، لأنها كلها من نوع المعاجم الجغرافية، ولو أن الأخير منها هو في أصله جداول لا معجم. لكن يبدو أن فكرة ترتيب الكتاب على أساس حروف الهجاء قد خطر على الأقل لكاتب واحد هو «سباهي زاده» التركي المتوفى سنة ٩٩٧هـ (١٥٨٨م)، ولكن هذا الكتاب لم ينشر بعد.

ولننتقل الآن إلى المؤلف الذي يعتبر الكثيرون عمله ذروة التآليف الجغرافي عند العرب، وهو الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م)، أو قبل ذلك بقليل. ومع أن الإدريسي شغل الباحثين طويلاً، ولا يزال يشغلهم، فإن معرفتنا به لا تزال محدودة. ونحن نحيل القارىء الذي يريد أن يتعرف إلى القضايا المختلفة المتعلقة بحياته وكتابه إلى الفصل الطويل الممتع الذي كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه «تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» المنشور في مدريد سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٧م) ص: ١٦٥ - ٢٨٠، فهو أحدث ما كتب في الموضوع، ومن أفضل ما وضع فيه.



□ صورة لجزء من خارطة العالم التي وضعها الجغرافي العربي «الإدريسي».

وتعود الصعوبات المتعلقة بالرجل وعمله الكبير إلى أمور يمكن إجمالها فيما يلي:

* أن الذي نعرفه عن حياة الإدريسي قليل جداً، ذلك بأن أصحاب التراجم لم يعنوا به إلا فيما ندر.

* أن كتاب الإدريسي «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» لم ينشر بعد تاماً في مجلد واحد، ذلك بأن الاهتمام انصبّ على أجزاء منه، فنشر الباحثون الفصول التي تهمهم بشكل خاص.

* ثمة اختلاف كبير بين النسخ التي هي بأيدي الدارسين لآثار الإدريسي الجغرافية، ولكن معهد الدراسات الشرقية في إيطاليا أخذ على عاتقه قبل سنوات تهيئة طبعة علمية لكتاب الإدريسي، وعهد إلى عدد من المهتمين بالموضوع القيام بذلك. ولا شك أن هذا الأمر يستغرق بعض الوقت قبل أن يوضع المؤلف كاملاً بين أيدينا، إلا أن الدكتور إحسان عباس يعد الآن نصاً كاملاً لنزهة المشتاق، وسينشر قريباً.

بعد إيراد هذه التحفظات نضع بين أيدي القراء خلاصة ما وصل إليه الباحثون حول المؤلف وكتابه «نزهة المشتاق».

ولد الشريف الإدريسي في «سبتة» بالمغرب سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م). وفي شبابه خرج من تلك البلاد سائحاً متجولاً في الشرق، وقد زار مصر وآسيا الصغرى، وليس ما يدل على أنه زار ديار الشام مثلاً. ومن الواضح أن الإدريسي أقام وقتاً طويلاً بقرطبة، وتلقى العلم بها، ومن الواضح أن هذا جاء بعد رحلته إلى المشرق. ويرى البعض أنه زار لشبونة وسواحل فرنسا، بل لعله وصل إلى إنكلترا. والمهم أن الشريف الإدريسي وفد على صقلية سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩م)، ونزل في ضيافة ملكها «روجار الثاني» في «بلرمو»، وهناك وضع كتابه «نزهة المشتاق».

ويجدُر بنا أن نتذكر أن صقلية كانت في أيدي العرب مدة طويلة قبل أن احتلها النورمان في القرن الرابع (العاشر). ولكن ملوك النورمان حافظوا على ما كان في الجزيرة من حضارة بيزنطية عربية، لأنهم أدركوا الفائدة التي تعود عليهم من ذلك. وكان البلاط النورماني يجد فيه أهل العلم والمعرفة ترحاباً كبيراً بقطع النظر عن مذاهبهم. وكان روجار الثاني معنياً

بالجغرافيا وتسقط أخبار الأقطار، لذلك لقي الإدريسي في البلاط التكرمة اللائقة به. وهناك طلب منه روجار أن يضع له كتاباً لجغرافية العالم، فقام الرجل بذلك، ولكنه صنع مع ذلك شيئين آخرين: أولهما أنه رسم خارطة مستديرة للعالم على كرة أو قرص من الفضة، وثانيهما أنه رسم سبعين خارطة للأجزاء التي قسم العالم إليها. ولسنا نعرف في أي منها بدأ الإدريسي عمله، ولكن من المرجح أن العمل تم في هذه الأشياء الثلاثة معاً. ولنذكر بادىء ذي بدء، أن الإدريسي كان على علم واسع بالجغرافية والفلك والحساب والتاريخ، وكذا الأدوية والأعشاب.

والباحثون يذهبون إلى أن الإدريسي اطلع على ما كتبه الجغرافيون العرب من قبل، سواء في ذلك ما نقلوه عن بطليموس أو ما وضعوه مستقلين منفردين. وقد درس الدكتور حسين مؤنس مصادر الإدريسي ومنهجه في العمل فخلص من ذلك إلى أن الرجل:

«بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك، وبعد أن ساح في البلاد على قدر ما استطاع، بدأ يرتسم في ذهنه تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد لكتابتها يختلف تمام الاختلاف عما سبق إلى ذلك الحين: تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كُلٌ واحد كل ما فيه جدير بالوصف والتحقيق، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس، أو على عالم الإسلام، كما عند معظم جغرافيي العرب إلى ذلك الحين، تصور جغرافي خالص لا يختلط بالتاريخ هذا الاختلاط الذي جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضاً، كما نجد عند أبي عبيد البكري، ولا يخلط بين الحقيقة والأسطورة، كما نجد عند الهمداني، تصور جغرافي علمي خالص. وبناء على هذا التصور رسم منهجه: منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها ببعض ومراعاة النسب بينها، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك إلى مناطق يستقصي الكلام عنها في تفصيل، ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات، فما شهده بنفسه أثبته كما رآه، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا إليه وساروا في طرقه أو أبحروا في أمواجه أو اشتغلوا بالتجارة فيه. ويستكمل ذلك بما عسى أن يجده في كتب الجغرافية التي تتيسر له.

وليس معنى هذا أن الإدريسي فكر في هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافي، فإن تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد إلا بعد عصره بقرون، ولكنه على أي حال فكر في منهج جديد أو بتعبير أدق: سار في طريق جديد، هو الطريق الذي وصل بالجغرافية إلى ما هي عليه اليوم، وتطلب منه السير في ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها، ولا أوصاف للنواحي يمكن الاعتماد عليها، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وإنتاجهم. وكان عليه أن يبدأ هو بذلك، فقرر أولاً أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة في عمله، ثم قسم هذه الخريطة إلى أقسام صغيرة، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان إليه من ذلك كله».

والأسس التي بنى عليها الإدريسي جغرافيته هي: كروية الأرض ووجود الأقاليم السبعة بدءاً من خط الاستواء والابتداء بالأطوال من جزر «الخالدات» (جزائر كناري). واتخذ خريطة بطليموس أساساً لخريطته، لكنه أصلح ما فيها من أخطاء.

وبدل أن يكتفي بقسمة الأرض إلى أحزمة عرضية موازية لخط الاستواء، فقد قسم كل إقليم إلى عشرة أجزاء طولية، وبذلك تحتم عليه أن يصف سبعين جزءاً بدل أن يصف سبعة أقاليم، على طريقة بطليموس، أو المناطق الجغرافية على طريقة أهل القرن الرابع (العاشر). ولعلّ الرجل رسم خارطة العالم المستديرة أولاً، ثم نزع الأقسام السبعين وبسطها بحيث حوّلها إلى خريطة مسطحة. وهو عمل شبيه بالذي قام به «مركاتور الفلمنكي» في القرن السادس عشر من رسم الأطوال والعروض على زوايا قائمة. ولعله أثناء ذلك قام بعمل كرة أرضية من الفضة وجعل الرسامين والنقاشين ينقلون على مستطيلاتها محتويات كل مستطيل من الخريطة المسطحة.

وكان أن وضع كتاباً مطولاً يشرح فيه هذه الخريطة وأجزاءها، فجاء كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، حاوياً وصف البلاد والبقاع والبحار والجبال والأنهار والمزروعات والغلال وأجناس النبات والصناعات والتجارات والسكان وعاداتهم وملابسهم ولغاتهم.

وجاء إتمام العمل في رسم الخرط الصغيرة التي بلغ عددها سبعين خارطة أو صورة.

* * *

أمامنا الآن أربعة من الذين عالجوا الجغرافية لا على أنها علم مستقل، ولكنهم تعرضوا للجغرافية الإقليمية والإدارية والسياسية لمناطق مختلفة، مع الاهتمام بديار الإسلام أو جزء منها، ضمن إطار من التأليف خاص. وهؤلاء هم: ابن شداد، والنويري، والعمري، والقلقشندي.

عاش هؤلاء في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر). فابن شداد عرف عصر الأيوبيين، لكنه عاش خمساً وثلاثين سنة تحت حكم المماليك. أما الثلاثة الباقون فقد ولدوا وعاشوا وتوفوا ودولة المماليك قائمة. وجميعهم شغلوا مناصب في الدولة. فابن شداد، الحلبي الأصل، كان من موظفي الدولة الأيوبية، وكان خبيراً في الشؤون المالية، وقضى بعض الوقت في دمشق، لكنه انتقل إلى القاهرة بعد الغزو المغولي، وتمتع برعاية بيبرس وقلاوون ومات فيها. والنويري المصري ولي كتابة الإنشاء، وكان في وقت من حياته ناظراً للجيش في طرابلس (لبنان). وابن فضل الله العمري، دمشقي المولد مصري التعليم كانت له مشاركة كبيرة في شؤون الدولة والإدارة أيام المماليك، وخاصة في شؤون البريد وكتابة السر. والقلقشندي المصري أيضاً التحق بديوان الإنشاء بالقاهرة.

ويمكن أن يفرد كتاب ابن شداد المسمى «الأعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة» عن مؤلفات الثلاثة الآخرين. فهو في واقع الأمر دراسة تاريخية جغرافية اقتصادية إدارية (ومالية في بعض الحالات) لمناطق ثلاث هي: شمال الشام، وجنوب الشام، والجزيرة الفراتية. وهو يتناول المدن المختلفة معدداً أبوابها وقلاعها ومساجدها الجامعة والمساجد الأخرى والمزارات والخوانق والربط والمدارس القائمة فيها.

لكنَّ الكتّاب الثلاثة الآخرين وضعوا كتبهم لتزويد كتاب الدواوين بحاجاتهم التفصيلية في ميادين الأدب والتاريخ والشرع والسياسة والتقسيم الإداري والنظم والرسوم والأوامر السلطانية وأساليب الكتابة الرسمية والخاصة. ويكاد الجميع يتفقون في تبويب كتبهم إلا أن الاختلاف يقع في التفاصيل.

يتعرض كل من هؤلاء إلى الجغرافية على أساس أن معرفة الأقاليم والممالك لازمة للعاملين في الدواوين. فالنويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» يفرد القسم الأول من كتابه للسماء والآثار العلوية

والأرض والمعالم السفلية. وإذا نحن أخذنا هذا القسم وجدناه يعرض فيه للأقاليم السبعة فيذكر حدود كل منها وما يدخل فيه من البلاد على نحو التقسيم البطليموسي ويذكر في نهاية كل فقرة عدد المدن في الإقليم على ما ورد عند بطليموس. فإذا أخذ نفسه بوصف البلاد لجأ إلى مؤلفي كتب المسالك ينقل عنهم. ثم يخص المدن بالوصف الذي يختلف إجمالاً وتفصيلاً بقدر ما تصل إليه يده من المصادر. ويورد المباني المشهورة في كل بلد كما يتحدث عن المتنزهات المشهورة. وفي كثير من الأحيان يستعرض ماضي المدن وما طرأ عليها من التبدل والتغير، وبذلك يقدم لنا مصدراً من الدرجة الأولى بالنسبة للجغرافية والجغرافية التاريخية المعاصرة. ولعل وصف النويري لمتنزهات الدنيا، ودنياه في الدرجة الأولى ديار الإسلام، يعطينا صورة حية لأسلوبه في معالجة موضوعه. يقول النويري:

«اتفق جوابو الأقطار أن مستنزهات الدنيا أربعة مواضع، وهي: صغد سمرقند، وشعب بوان، ونهر الأبلة، وغوطة دمشق. وقد رأيت أن أصف هذه المستنزهات بصفاتها التي شاهدتها ونقلت إليّ، وأخبارها التي عاينتها وأبهى ما ارتاحت النفوس إلى أزهاره النواضر، وصف رياض تاهت الأرض على السماء بأزهارها، وباهت أنوار الكواكب بنورها ونوارها.

فمنها صغد سمرقند، الذي تحف به بساتين كست زهرتها من الأرض عاريها، وأصبح للسماء بكاء في جوانبها وللروض ابتسام في نواحيها تتخللها قصور يتضاءل سنا النجم في آفاقها، وتحتجب الغزالة عند طلوعها حياء من بهجتها وإشراقها.

ومنها شعب بوان، الذي غدت مغانيه مغاني للزمان، وقصرت الألسن عن وصف محاسنه وطالت إلى اقتطاف ثمره البنان، تكاد شمسه تغرب عند الإشراق، ولا تتخلل أشجاره إلا والحياء يعيدها في قبضة الإطراق، يستغني بغدرانه عن صوب الصيب.

ومنها نهر الأبلة، الذي طوله أربع فراسخ، ورؤوس نخله على وجه الأرض شوارف وأصولها في الثرى رواسخ، بجانبيه بساتين، إن هب النسيم بأغصانها تعانقت وتمايلت، وإن لعب بأفنانها تناظرت وتماثلت، كأنما غرست في يوم واحد شجراته، وقامت على خط الاستواء نخلاته، وفيه يقول التنوخي شاعر اليتيمة:

وإذا نظرت إلى الأبلة خلتها
من جنة الفردوس حين تخيل
كم منزل في نهرها آلى السرو
ر بأنه في غيره لا ينزل
فكأنما تلك القصور عرائس
والزهر وشي فهي فيه ترفل
غنت قيان الطير في أرجائه
هزجاً يقل له الثقيل الأول
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت
يوم الوداع وغيرهم تترحل
ربع الربيع بها فحاكت كفه
حللاً بها عقد الهموم تحلل
فمدبّج وموشّح ومدنّر
ومعمّد ومحبّر ومهلّل
فتخال ذا عيناً وذا ثغراً وذا
خداً يعضض تارة ويقبل

ومنها غوطة دمشق، التي هي شرك العقول وقيد الخواطر، وعقال النفوس ونزهة النواظر، خلخلت الأنهار أسوق أشجارها، وجاست المياه خلال ديارها وصافحت أيدي النسيم اكف غدرانها، ومثلت في باطنها

□ صفحتان مصورتان عن مخطوطة ابن فضل الله العمري «مالك الأبصار» وهما من الجزء الرابع من المخطوطة الموجودة في مكتبة احمد الثالث في استانبول بتركيا.

مواش أغصانها، يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع أن يقبضها ببنان، ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان في كل أوان، فيا لها من رياض من لم يطف بزهرها من قبل أن يحلق فقد قصر، ومن غياض من لم يشاهدها في إبانها فقد فاته من عمره الأكثر».

وكان العمري في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، أدق الثلاثة من الناحية الجغرافية وأوسعهم اطلاعاً. وقد اقتصر على ذكر ممالك الإسلام، فإذا ذكر الممالك الأخرى جاء ذلك عرضاً. وقد قال عن نفسه انه نقل بعض الكتب المصنفة في الموضوعات الجغرافية كتقسيم الأقاليم وأقوال القدماء فيها وأخبار الملل والدول، وعني بها جملة لا تفصيلاً. وقصد من المعمورة الممالك العظيمة. وقد فحص عن العجائب ونقل أخبار الغرائب. بدأ بالمشرق وانتهى بالمغرب والبحر المحيط إلا ما كان لا بد فيه من الابتداء بالمغرب كتخريج الأقاليم لابتداء الأطوال من الجزائر الخالدات.

والعمري يعنى بأحوال المدن وأخبارها عناية خاصة. وهو من حيث المعلومات الجغرافية التي نحصل عليها أفيد المؤلفين لنا وأنفعهم. فقد فصل في الجغرافية والتاريخ واختصر كثيراً في غيرهما بحيث يمكن القول بأن كتابه اقتصر على هذين الموضوعين.

وينقسم المصنف إلى قسمين أحدهما مكرس للأرض، والآخر لسكانها من مختلف الشعوب. وينقسم القسم الأول بدوره إلى قسمين يطلق العمري عليهما مصطلحاً لا يجري عادة في الاستعمال وهو «النوع» ويحمل «النوع الأول» عنواناً موجزاً هو «في ذكر المسالك»، ويجب أن يؤخذ هذا العنوان بمفهومه العريض ليشمل في الواقع الجغرافيا العامة، أما الباب الأول منه فيبحث في أبعاد الأرض وحالها، والثاني في الأقاليم السبعة. أما الباب الثالث ففي البحار وكل ما يتعلق بها وهنا يرد ذكر «القنباص» (معرب كومباس Compass وهو البوصلة). ويبحث الباب الرابع في القبلة والأدلة عليها، أما الخامس ففي الطرق. هذا فيما يتعلق

بالنوع الأول، فإذا ما انتقلنا إلى النوع الثاني فهو يحمل أيضاً اسماً مقتضباً هو «في ذكر الممالك»، وينقسم إلى خمسة عشر باباً تصف على التوالي الدول والبلاد الآتي ذكرها، ابتداء من الشرق في اتجاه الغرب: الهند والسند، ممالك بيت جنكيز خان، الجيل (كيلان)، الجبال، الأتراك بالروم (آسيا الصغرى)، مصر ومعها الشام والحجاز، اليمن، المسلمون بالحبشة، السودان، مملكة ملي، جبال البربر، أفريقيا مملكة بر العدوة (مراكش)، الأندلس، العرب البدو المعاصرون وأماكن سكناهم. والقسم الثاني من الكتاب الذي يبحث في سكان الأرض من طوائف الأمم ينقسم إلى خمسة أنواع. أما النوع الأول فإنه يحوي مفاخرة بين المشرق والمغرب تمس الطبيعة والحيوان، بل وطوائف العلماء في صورة مختصرة وفي قالب أدبي. ويبحث النوع الثاني في الديانات المختلفة. بينما يبحث الثالث في طوائف المتدينين، أما الرابع فمكرس للتاريخ ويتضمن بابين أحدهما في ذكر الدول التي وجدت قبل الإسلام، والثاني في ذكر الدول الكائنة في الإسلام.

والعمري، مثل زميليه، يكتب سجعاً، ولكنه ينظم، في بعض الأحيان شعراً يدون فيه انطباعاته. وها نحن أولاء ننقل وصف العمري لمدينة طرابلس بلبنان:

«طرابلس ـ قال ابن فضل الله: ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها بحيث يجري الماء في الأماكن العالية من الدور التي يرقى إليها بالدرج. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج وأغنام وبقر. ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج. ويعمل بها السكر، وتاتيها وفود البحر وترسي بها مراكبهم، وهي موضع زرع وضرع. وهي الآن مدينة كثيرة الرخام، بها مارستانان، ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات حسان مرصوفة وأسواق جليلة، وجميع بنيانها بالحجر والكلس مبيضة ظاهراً وباطناً. وبها غوطة ويحوط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها».

وفي «كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا» للقلقشندي نجد أنه يورد في المقالة الأولى الأزمنة والأوقات والشهور والفصول من الناحيتين الشرعية والفلكية ويقارن بين أنواع الشهور والسنين، ويخص المقالة الثانية بالمسالك والممالك. فيذكر الأرض على وجه الإجمال من حيث شكلها وإحاطة البحر بها وأقاليمها الطبيعية وأنواع البحار وكيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها. ويتناول الأرض دولة دولة، بادئاً بمصر، فيتحدث عن وضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحيوانها وطيورها وقواعدها. ثم يفصل كورها ومدنها وأخبارها وترتيب أحوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع أراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب أمرائها وملوكها. ويتناول العالم الإسلامي أصلاً، ثم ينتقل إلى ما خرج عنه، ولا بد من القول بأن القلقشندي، الذي كان يعتمد على السابقين من المؤلفين، لم تتساو لديه المعلومات التي وصل إليها دقة وتفصيلاً، لذلك فهو يقع في أخطاء متعددة عندما يكتب عن الشرق الأقصى أو بعض الأقطار الأوروبية.

ولعلّ القراء يستطيعون تبيين أسلوب القلقشندي، ولو بعض الشيء، من القطعة التالية في وصفه لمدينة مراكش. يقول:

«مدينة مراكش ـ بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة ـ مدينة واقعة في أول الأقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول إحدى عشرة درجة، والعرض تسع وعشرون درجة. بناها أمير المسلمين

«يوسف بن تاشفين» ملك المرابطين في أرض صحراوية، وجلب إليها المياه. قال ابن سعيد: وأول ما بني بها القصر المعروف بـ(قصر الحجر) ثم بنى الناس حوله، ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن، وكبرها ومصرها، وفخمها وضخمها، وجلب إليها المياه والغراس. قال في «تقويم البلدان»: ودورها سبعة أميال، ولها سبعة عشر باباً. قال في «الروض المعطار»: وبنى سورها علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ست وعشرين وخمسمائة، وقيل سنة أربع عشرة وخمسمائة. وقال: وطولها مائة وعشرون ميلاً، وعرضها قريب من ذلك، وهي في وطاة من الأرض ليس حولها جبال إلا جبل صغير منه قطع الحجر الذي بنى منه علي بن يوسف بن تاشفين قصره، وعامة بنائها بالطين والطوب.

قال ابن سعيد: وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهراً وباطناً، ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليه، ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه، وغير ذلك حتى أن الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه، ولا يخرج من بابه إلى خارج داره لحاجة يحتاجها، ولا يشتري شيئاً من السوق لمأكل، ولا يقرىء أولاده في مكتب، ويخرج من بابه راكباً فلا تقع عليه العين راجلاً. قال: ولا أدري كيف أصل إلى غاية من الوصف أصف بها ترتيب هذه المدينة المحدثة، فإنها من عجائب همات السلاطين، ذات أسوار ضخمة وأبواب عالية».

وثمة أمران يجب أن يذكرا لهؤلاء المؤلفين: وهما أنهم كانوا، إلا فيما ندر، أمينين في نقلهم وذكر مصادرهم، وأنهم حاولوا تحري الحقائق جهدهم. ولكن إذا تذكرنا أن كلاً من هذه الكتب يتراوح بين ١٤ و٣٠ مجلداً، أدركنا صعوبة التأكيد من كل ما رووه، أو عجزهم عن الإحاطة التامة بأجواء المعرفة التي تصدوا لجمعها. ولكنهم، على كل حال، وضعوا بين أيدينا مادة جغرافية اقتصادية اجتماعية سياسية إدارية ذات قيمة كبيرة، لأنها تساعدنا في فهم العصر الذي عاشوه.

●

المصدر: مجلة «قافلة الزيت» جمادى الأولى ١٣٩٣، حزيران (يونيو) ١٩٧٣.

بخلاء

● يروي الجاحظ في كتابه «البخلاء» أن سائلاً وقف يوماً بباب قوم فقال: إني جائع، قالوا: كذبت، فقال السائل: جربوني برغيفين ورطلين من اللحم.

الشعبي والأعرابي

● يروى أن الشعبي مر يوماً بإبل قد فشا فيها الجرب، فقال لأعرابي كان يحرسها: ألا تداوي إبلك يا أخا العرب؟! فقال الأعرابي: إنّ لنا عجوزاً مؤمنة نتكل على دعائها!

قال الشعبي: لو جعلت مع دعائها شيئاً من القطران كان ذلك أرجى!

الأيادي ثلاث

الأيادي ثلاث: بيضاء وخضراء وسوداء، فاليد البيضاء: الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء: المكافأة على المعروف، واليد السوداء: المنّ بالمعروف.